

الاستفهام الإنكاري

د/ وداد المبروك صالح أبوكليش (*)

الاستفهام الإستنكاري :

إذا كان الاستفهام الإنكاري بمعنى النفي^١، فما الفرق بينه وبين النفي الصريح ؟.

هناك فوراق كبيرة بين الاستفهام الإنكاري والنفي الصريح يدركها المتخصص في البلاغة العربية أهمها :-

١- أن النفي الصريح من الأساليب الخبرية لفظاً ومعنى ، بينما الاستفهام الإنكاري من الأساليب الخبرية لفظاً ، ومعناه أنشاء^٢.

٢- أن النفي الصريح يفيد الغرض المقصود من أول وهلة ، والاستفهام الإنكاري لا يفيد الغرض المقصود من أول وهلة ، بل تعرض عليه خطأه في صورة سؤال ، وتتل مطالبك ، وتطلب منه أن يتأمل فيه، ثم يجيب عنه ، وذلك أدعى للاقتناع ، لأنه يدرك خطأه بنفسه .

قال الإمام عبدالقاهر الجرجاني : (فإن الذي محض المعنى أنه وليثنيه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعي بالجواب)^٣.

(*) قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم - جامعة الزيتونة - ترونة - ليبيا .

٣- أن المتكلم بأسلوب الاستفهام الإنكاري يوهم المخاطب أنه أعلم منه بحقيقة الأمر حسب الظاهر ، بدليل أنه يطلب منه جواباً ، وفي نفس الوقت يشعر المخاطب بثقة المتكلم واطمئنانه ، وأنه لا يخشى تكديباً ، عكس النفي الصريح تماماً فإن المتكلم يشعر بالثقة والاطمئنان ، لأنه يفيد غرضه من المخاطب من أول لحظة^٤.

٤- أسلوب الاستفهام الإنكاري يمتاز بالطرف والتأدب واللباقة في المخاطبة ، ولذا لاتجده إلا في الأسلوب الأدبية الرفيعة كالقرآن الكريم ، والأحاديث النبوية الشريفة، وعند فحول الشعراء والأدباء، والكتاب.

٥- لا يجوز دخول على المستحيل ، ويجوز أن يقرر بالمحال^٥ فلا يصح بلاغة أن تقول : أنت لا تصعد إلى السماء، لأن النفي الصريح لا يدخل على المستحيل في الأساليب البليغة .

ويصح أن تقول :أأنت تشرب المحيط؟، أأنت تصعد إلى السماء؟، لأنه يقرر بالمحال ، وفيما يقول به عاقل على سبيل الاستعارة التمثيلية، فشبه حال من يدعي أمراً بعيد المنال^٦ بحال من يدعي شرب المحيط ، بجامع الاستحالة تحقق الطرفين .

وقد ورد التقرير بالمحال في القرآن الكريم كقوله تعالى (أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي)^٧.

فالهمزة للاستفهام الإنكاري ، والمنكر الفاعل^٨ ولهذا قدم ، وواضح أن الآية ليست على ظاهرها لأن إسماع الصم وهداية العمي ، لا يدعيه أحد ولا يقوله عاقل ، وإنما المراد التمثيل ، حيث شبه النبي صلى الله عليه وسلم

في حرصه على هداية الكفار الذين أصروا على كفرهم بمن يحاول إسماع الصم وهداية العمي ، بجامع الاستحالة^٩.

والجدير بالذكر أن النفي الصريح يدخل على المحال على سبيل التمثيل كما في قوله تعالى (إنك لاتسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين)^{١٠}.

فقد شبه النبي صلى الله عليه وسلم في حرصه على هداية الكفار بمن يحاول إسماع الموتى أو الصم ، بجامع الاستحالة .

والمعنى : أن حال الكفار كحال الموتى في انتفاء الجدوى بالسماع ، أو كحال الصم الذين لا يسمعون ، ولا يفهمون ، ولا يهتدون ، فلا اعتداد بهم ، شبه الكفار الذين لا فائدة من دعوتهم إلى الإيمان ، بمن يحاول إسماع الموتى أو الصم بجامع الحال ، ثم ذكر جملة لتكميل التشبيه و تأكيده ، فقال : " إذا ولوا مدبرين " أي : إذا أعرضوا عن الحق إعراضاً تاماً فإن الأصم لا يسمع الدعاء إذا كان مقبلاً ، فكيف إذا كان معرضاً مولياً مدبراً ، والآية أدخلت النفي على المستحيل ، وذلك على سبيل الاستعارة التمثيلية^{١١}.

لماذا يوجه الإنكار للفاعل؟:

يوجه الإنكار للفاعل لأسباب بلاغية منها^{١٢}:-

١- أن يكون عاجزاً عن الفعل ، وليس في وسعه أن يفعله، نحو قوله تعالى: (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أهم يقسمون رحمت ربك)^{١٣} (أفانت تسمع الصم أو تهدي العمي)^{١٤}.

٢- أن يكون أعلى همة وشأناً من أن يفعله ، مثال ذلك : أهو يرتشي؟ أهو يمنع الناس الحقوق ؟، أي إن غيره يفعل ذلك ، أما هو فلا.

٣- أن يكون أصغر همة، و أخط شأناً من أن يفعله، مثل ذلك : أهو يفعل الجميل؟، أهو يبني مدرسة؟، أي هو أقصر همة، و أقل رغبة في الخير. أما غيره فلا.

أقسام الاستفهام الإنكاري :

١- ينقسم الاستفهام الإنكاري إلى قسمين^{١٥}:-

أ- استفهام إنكاري تكذيبي.

ب- استفهام إنكاري توبيخي.

أولاً: الاستفهام الإنكاري التكذيبي يفسر في الماضي بمعنى : لم يكن، وفي المضارع بمعنى : لا يكون ، ويسمى أيضاً الاستفهام الأبطالي^{١٦}، كقوله تعالى (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً)^{١٧} أي : أخصم ربكم بالذكور وخص نفسه بالبنات ؟ بمعنى : أنه لم يكن هذا ، لتعالیه سبحانه عن الولد مطلقاً^{١٨}.

أما الاستفهام الإنكاري التكذيبي في المضارع فنحو قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام عندما دعا قومه إلى توحيد وكذبوه (قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وعاتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون) بمعنى : لا يكون أي : أنلزمكم تلك الحجة البينة على أنني رسول الله ، أي أنكرهكم على قبولها ، والحال أنكم لها كارهون ؟ يعني لا يكون هذا الإلزام . فالإنكار في هذين الحالتين إنكار لأمر كاذب ، ولذلك يسمى إنكار تكذيبي^{١٩}. ومنه قول "امرئ القيس"^{٢٠}:

أَيَقْتُلْنِي وَ الْمَشْرِفِيُّ مَضَاجِعِي وَمَسْنُونَةُ زُرْقُ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

فهذا تكذيب لإنسان تهدده بالقتل، وإنكار أن يحصل منه ذلك ، بمعنى لن يكون^{٢١}.

فالمنكر هنا أيضاً الفعل، وهو " القتل " بدليل قوله: و المشرقي مضاجعي ، فإن مضاجعة السلاح حائلة دون وقوع القتل عادة ، لا وقوع قتل المخاطب ، بأن يكون القتل ممكناً ، لكن ليس هو فاعله^{٢٢}.

ثانياً: الاستفهام الإنكاري التوبيخي : فالإنكاري التوبيخي في الماضي بمعنى ما كان ينبغي أن يكون ذلك ، وفي المضارع بمعنى لا ينبغي أن يكون هذا الأمر.

تأمل قوله تعالى (أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً)^{٢٣} ، فالمعنى : ما كان ينبغي أن يقع هذا الكفر وقد خلقك الله ، فسوال و أنعم عليك بالنعم التي تتباهي بها وتفتخر

ومنه قول امرئ القيس :

أَغْرَكَ مِنِّي أَنَّ حُبَّكَ قَاتِلِي وَأَنَّكَ مَهْمَا تَأْمُرِي الْقَلْبَ يَفْعَلُ^{٢٤}

و المعنى : ماكان ينبغي أن يغرك حبي لك، وتعتقدي أنني أصبحت مثيماً في هواك ، أفعل ما تأمريني به^{٢٥}.

وفي المضارع بمعنى لا ينبغي كقوله تعالى (أتعبدون ما تنحتون) بمعنى : لا ينبغي ، وقوله تعالى (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم) فهو يوبخهم على أن يقع منهم ذلك ، كأنه يقول : لا ينبغي أن يكون منكم الكفر وهذه نعم الله عليكم كما تعرفون^{٢٦}.

وقد ذكر عبدالقاهر الجرجاني الحكمة في سبب تسمية الاستفهام بالإنكاري، سواء أكان لإنكار الوقوع بمعنى النفي أم لإنكار الواقع، بمعنى

التوبيخ فقال : (واعلم أننا و إن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا الإنكار بالنفي، فإن الذي هو محض المعنى أنه ليتبين السامع، حتى يرجع إلى نفسه، فيخجل ويرتدع ، ويبين الجواب، إما لأنه ادعى القدرة على فعل ما لا يقدر عليه ، فإذا ثبت على دعواه قيل له (فافعل) فيفضحه ذلك، و إما لأنه همَّ بأن يفعل ما لا يستصوب فعله، فإذا روجع فيه تنبه، وعرف الخطأ، وأما لأنه جوز وجود أمر لا يجوز مثله، فإذا ثبت على تجويزه قبح على تعنته وقيل له: (فأرنا في موضع وفي حال) ،وأقم شاهداً على أنه كان في وقت^{٢٧}.

ويفهم من هذا الكلام أن الإنكار إذا كان نفيًا لوقوع أمر، فالمعنى أن الأمر لا يقع ، ولا يعقل أن يقع ، فهو نفي مؤكد : إذ هو ليس نفيًا للفعل فقط، بل هو نفي له مع بيان أنه لا ينبغي ولا يجوز أن يقع ، و إذا كان الفعل قد وقع فهو توبيخ على الوقوع و استنكار له ، كما قوله تعالى (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده و الطيبات من الرزق)^{٢٨}.

ويلاحظ أن الإنكار سواء أكان إنكاراً للوقوع بمعنى النفي أم إنكاراً للواقع بمعنى التوبيخ ، فإن فيه حمل الفاعل على الإقرار بالنفي أو إثبات ما أوجب التوبيخ^{٢٩}.

حكم المنكر:

يرى الإمام عبدالقاهر الجرجاني أن المنكر^{٣٠} يجب أن يلي الهمزة مباشرة سواء أكان فعلاً أم فاعلاً ، أم متعلقاً من متعلقات الفعل ، قال تعالى (أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين)^{٣١}، فالرسول لوط عليه السلام ينكر عليهم هذه الفعلة الشنيعة ، والجريمة الكبرى فهو إنكار وتوبيخ.

وقوله تعالى (أندعون بعلًا وتذرون أحسن الخالقين)^{٣٢} أي لا ينبغي أن يكون ذلك، وقوله تعالى (أفعمينا بالخلق الأول)^{٣٣} أي لم يكن شيء من هذا.

هذه أمثلة إنكار الفعل إنكاراً تكذيبياً وتوبيخياً.

أما إذا كان المنكر هو الفاعل أو المفعول فيجب أن يجرى بعد الهمزة مباشرة كقوله تعالى (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)^{٣٤}، وقوله تعالى (أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي)^{٣٥} والمراد لست أنت الفاعل الحقيقي، بل نحن القادرون على هذا ، وقد دخل الاستفهام الإنكاري على المستحيل على سبيل الاستعارة التمثيلية كما أوضحنا في الأمثلة السابقة . وقال تعالى (أبشراً منا واحداً نتبعه)^{٣٦} وقوله تعالى (أفغير دين الله تبغون)^{٣٧} فالمنكر هنا هو المفعول ولهذا قدم .

مؤكدات الإنكار عند عبدالقاهر الجرجاني :

١- يؤكد الإنكار بذكر النداء قبله^{٣٨} كقوله تعالى (يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم)^{٣٩} فقد تضمن النداء وصفهم بالعلم، و إنكار محاجتهم وجدالهم حينئذ يكون أكثر قبحاً.

٢- وقد يكون الإنكار (بإن) و (اللام)^{٤٠} قال تعالى (إنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل)^{٤١} وقال تعالى (إنكم لتأتون الفاحشة)^{٤٢}. فالمنكر إتيان الفاحشة ، وإتيان الرجال بدل النساء ، وقد أكد بمؤكدتين (إن ، واللام).

٣- ويؤكد بلفظ (كلا)^{٤٣} التي هي للردع والزجر قال تعالى (أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم كلا)^{٤٤}، فالمنكر هو الطمع في دخول الجنة ، والذي يؤكد الإنكار وعدم الطمع فيها كلمة (كلا) الدالة على الزجر والردع.

صور إنكار الفعل:

الصورة الأولى : يجب أن يكون الفعل المنكر يلي الهمزة مباشرة كقوله تعالى (أخرقتها لتغرق أهلها)^{٤٥}، بمعنى ما كان ينبغي أن تخرقها

لنتسبب في غرق وهلاك راكبيها ، وقال تعالى (اصطفى البنات على البنين)^٦ ، لم يكن منه اصطفاه لجنس على جنس ، فهذا تكذيب للمشركين ، ورد لما يفترونه بمعنى :لم يكن هذا فأنهم كانوا يزعمون أن الملائكة إناث وأنهم بنات الله وأن الله أختصهم بالبنين الذين هم الصفوة ، وأختار لنفسه البنات. فكذبهم الله تعالى في كلا الأمرين^٧ وقال تعالى (أنزل مكموها)^٨ أي لا يكون منى إكراه وإلزام لكم على الهداية ، وقال تعالى (أتأتون الذكران من العالمين)^٩ ، أي لا ينبغي أن تفعلوا هذا الفعل الشنيع.

الصورة الثانية : ألا يكون الفعل المنكر والياً للهمزة .

وخلصتها : أن يكون للفعل فاعل واحد وليس له سواه^{١٠} ، أو مفعول واحد وليس له غيره أو ظرف واحد ، أو جار ومجرور واحد وليس له سواه ، وهكذا بقية متعلقات الفعل ، فيقدم الفاعل الواحد ، أو المفعول الواحد ، أو الجار والمجرور على الفعل ، فتصير صورته صورة إنكار الفاعل ، أو المفعول ، أو الجار والمجرور، حسب الظاهر والمراد إنكار الفعل، لأن إذا نفي فاعله الذي ليس له غيره ، أو مفعوله الذي ليس له سواه، أو زمانه ،لزم انتقاؤه قطعاً ، لاستحالة وجود فعل بدون فاعل.

إن يلزم من نفي الفاعل^{١١} ، أو المفعول، أو الزمان، أو المكان نفي الفعل بطريق الكناية واللزم، و الكناية أبلغ من التصريح لأنها بمثابة دعوى مصحوبة بدليل ، قال تعالى (قل أرايتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل ءالله أذن لكم أم على الله تفترون)^{١٢} ، فالاستفهام الإنكار في قوله تعالى " ءالله أذن لكم " ، صورته صورة إنكار الفاعل حسب الظاهر، والمراد نفي الإذن من أصله ،لأنه لا آذن في التحليل أو التحريم إلا الله ، فإذا نفي أن يكون الله هو الآذن فقد انتفى الآذن من أصله ، وهذا يؤكد

في إنكار الفعل ، لأن فيه نفي الفعل مع الدليل ، ولو كان التعبير - أأذن الله لكم ؟ لأفاد إنكار الفعل - أي لم يكن - ولكن لا دليل عليه^{٥٣}.

وقل تعالى (الذكريين حرم الأنتيين أم ما اشملت عليه أرحام الأنتيين)^{٥٤} المقصود نفي الفعل وهو التحرير لشيء ما ذكر - ولكن لم يقدم الفعل عقب الهمزة بل أخرج الكلام في صورة نفي المفعول دون الفعل، ليكون أبلغ في نفي الفعل ، فإن نفيه يكون بطريق الكناية واللزم ، وذكر الدعوى مع دليلها ، كأنه قيل : لو كان هناك تحريم لكان متعلقاً بواحد من هذه الأمور، ولكن واحد منها ليس بمحرم ، فليس هناك تحريم ، وذلك أنهم كانوا تارة يحرمون ذكور الأنعام ، وتارة إناثها، وتارة ما في بطون الإناث ذكوراً كانت أم إناثاً مختلفة ، وينسبون ذلك إلى الله، فرد الله عليهم إفكهم بإنكار محل التحريم^{٥٥}.

ومثل ذلك قولك للرجل يدعي أمراً^{٥٦}، وأنت تتكره : متى كان هذا؟، أفي ليل أم نهار؟، و المراد نفيه من أصله، وتقول لمن قال لك زرتك و أنت تكذبه : أفي ليل زرتني أم في نهار؟، فالصورة صورة إنكار الزمان، و المراد نفي الزيارة لأنها لا بد لها من زمان تقع فيه فإذا نفي الزمان نفي الفعل بطريقة الكناية.

والكناية أبلغ من التصريح تقول لمن ادعى زيارته إليك، وأنت تتكر هذه الزيارة : أراجلاً زرتني أم راكباً؟، فالصورة صورة إنكار الهيئة والحال، والمراد نفي الزيارة بطريق الكناية وهي أبلغ من التصريح لأنها بمثابة دعوى بدليلها، لأن هيئة الزائر تخلص من هذين الحالين ، وهذان الحالان منتغيان فالزيارة منفية.

المصادر والمراجع :

١. ينظر المعجزة الكبرى القآن محمد أبوزهرة ص ١٥٨ - دار الفكر العربي ١٩٩٨ م.
٢. ينظر دراسات تفصيلية شاملة ص ٢٤٧.
٣. ينظر دلائل الإعجاز تعليق : محمود محمد شاكر ص ١٩٩.
٤. ينظر من بلاغة النظم العربي ج ٢/ ١٢٢.
٥. ينظر دراسات تفصيلية شاملة ص ٢٥٥.
٦. ينظر دلائل الإعجاز تعليق : محمود محمد شاكر ص ١٢٠.
٧. سورة الزخرف الآية : ٣٩.
٨. ينظر دلائل الإعجاز تعليق : محمود محمد شاكر ص ١٢٠.
٩. المصدر السابق ص ١٢٠.
- دراسات تفصيلية شاملة ص ٢٥٥ - ٢٥٦.
١٠. سورة النمل الآية : ٨٢.
١١. ينظر من بلاغة النظم العربي ج ٢/ ١٢.
١٢. ينظر دلائل الإعجاز تعليق : محمود محمد شاكر ص ١٢٢ - صور من تطور البيان العربي د. كامل الخولي ص ٢٧ ومعاني التراكيب ج ٩٠/ ٢.
١٣. سورة الزخرف الآية : ٣٠ - ٣١.
١٤. سورة الزخرف الآية ٣٩.

١٥. ينظر روائع المعاني د. عبدالحميد محمد العبيسي ص ٧٥-٨٧
١٦. ينظر مغنى اللبيب لابن هشام ج ١/١٧.
١٧. سورة الإسراء الآية ٤٠.
١٨. ينظر علم المعاني عبدالعزيز عتيق ص ١٠٣- دار النهضة العربية بيروت ١٠٨٥ م. و
١٩. هو الملك الضليل ذو القروح بن حجر بن الحارث الكندي من بني آكل المرار ، شاعر يمني الأصل ، ولد ينجد ، اشتهر بلقبه ملك أسد وعطفان ، وأمه أخت المهلهل الشاعر ، وعنه أخذ الشعر . - ينظر معجم المؤلفين ج ٢/ ٣٢٠ .
٢٠. ينظر ديوان امرئ القيس ص ٦٢ تحقيق : حنا الفاخوري - دار الجبل بيروت (الطبعة الأولى ١٩٨٩م).
٢١. معاني التراكيب د. عبد الفتاح لاشين ج ٢/ ٨٩.
٢٢. دراسات في علم المعاني د. عبدالواحد حسن ص ٩٨
٢٣. سورة الكهف الآية : ٣٦.
٢٤. ينظر الديوان ص ٣٢.
٢٥. ينظر علم المعاني د.بسيوني عبدالفتاح ج ٢/ ١٠٨- دار المعالم الثقافية (الطبعة الأولى ١٩٩٨م).
٢٦. ينظر البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني د.فضل حسن ص ٢٠٤.
٢٧. ينظر دلائل الإعجاز تعليق : محمود محمد شاكر ص ١١٩.
٢٨. سورة الإعراف الآية : ٣٠.

٢٩. ينظر المعجزة الكبرى القرآن للإمام محمد أبوزهرة ص ١٠٩.
٣٠. ينظر دلائل الإعجاز تعليق : محمود محمد شاكر ص ١١٤.
٣١. سورة الأعراف الآية : ٧٩.
٣٢. سورة الصافات الآية ١٢٥.
٣٣. سورة ق الآية ١٥.
٣٤. سورة يونس الآية ٩٩.
٣٥. سورة الزخرف الآية ٣٩.
٣٦. سورة القمر الآية ٢٤.
٣٧. سورة آل عمران الآية ٨٢.
٣٨. ينظر فن البلاغة عبد القادر حسين ص ١٣٩.
٣٩. سورة آل عمران الآية ٦٤.
٤٠. ينظر فن البلاغة عبد القادر حسين ص ١٣٩.
٤١. سورة العنكبوت الآية ٢٨.
٤٢. سورة العنكبوت الآية ٢٧.
٤٣. ينظر فن البلاغة ص ١٣٩.
٤٤. سورة المعارج الآية ٣٨.
٤٥. سورة الكهف الآية ٧٠.
٤٦. سورة الصافات الآية ١٥٣.

٤٧. معاني التراكيب جـ ٨٩/٢.
٤٨. سورة هود الآية ٢٨.
٤٩. سورة الشعراء الآية ١٦٥.
٥٠. ينظر دراسات تفصيلية شاملة ص ٢٥٠.
٥١. ينظر علم المعاني د. بسيوني عبدالفتاح جـ ١١٠/٢ - دار المعالم الثقافية (ط الأولى ١٩٩٨ م).
٥٢. سورة يونس الآية ٥٩.
٥٣. معاني التراكيب جـ ٩٣/٢.
٥٤. سورة الانعام الآية ١٤٥.
٥٥. ينظر دلائل الإعجاز تعليق: محمود محمد شاكر ص ١١٥.
- دراسات تفصيلية شاملة ص ٢٥٢ - خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية د. عبدالعظيم إبراهيم جـ ١٠١/١ مكتبة وهبة (ط الأولى ١٩٩٢ م).
٥٦. ينظر دلائل الإعجاز تعليق: محمود محمد شاكر ص ١١٦.